

## ملف المعرفة كإطار للعلوم والثقافة فاعلية الفكر بين مجتمع المعرفة واجتماعيتها

مالك الريماوي

إن الثقافة هي المجال الرمزي الناظم للمجتمع وللحياة فيه (وهذا ما بيّنه الفكر الحديث)، فالرمزية ليست أثاراً للمجتمع، بل إن المجتمع هو أثار للرمزية، كما يرى "شتراس" ، فالفكر بالنسبة للثقافة هو التاريخ فيها؛ أي بمعنى المتغير وصانع التغيير، فإن كانت الثقافة هي "إطار اشتغاله" ومادته وموضوعه، فإنه محركها والفاعل الرئيسي في "خلق ديناميتها"، ما يعني أنه إذا "كانت الثقافة هي جغرافية الحياة، فإن الفكر هو "الزمن التاريخي" فيها".

التعليم «كعملية» تمارس وكمنتوج يتحقق في سياق «المشروع المجتمعي» عبر خلق أفراد فاعلين، ومعارف قابلة للاستخدام ومناهج تفكير وتأمّل فاعلة ومرنة، فإذا كانت الغاية الأهم للتعليم هي تغيير العالم، فإن نقطة الرسو الأولى هي تغيير الرؤيا وشكل التحديق وموقع المعرفة وأدوات الفهم.

وقد بدأنا هذا المسار من توجهات عدة، هي نفسها نتاج لتجربة العمل، ونتاج للحوار الدائم مع المعلمين، حوار «معرفي تطبيقي» يمس الممارسة، ويحدث في حقل حدودها ويقاربه بوصفها فاعلية فكرية ذات صلة بمركز الحياة. وذلك عبر العمل مع المعلمين لبناء تجارب تعليمية تتجاوز رهانات المنهاج وحدود التلقين والفعل التلقائي نحو أشكال فاعلة ومفتوحة على الممكنات والدلالات، لإنتاج ممارسات جديدة وحلول مبتكرة وإعادة هيكلة العلاقات التربوية ضمن تصورات جديدة، تفتح على أشكال من التأمل البعدي المبني على قاعدة معرفية تضمن له عدم البقاء في أسر الحدوس العفوية، والارتجال التلقائي، الذي يفتح على خلق خطابات جديدة وتعبيرات جديدة تكشف ما في هذه التجارب من عمق في العلاقات، وما مسها من تغيير، وتولد للمعلم عين ثالثة، ما يمكنه من رؤية تاريخ عمله وذاكرته بالأولى، ويوجه الثانية نحو أفق التغيير ويجمع النظرتين في نظرة نحو المتصاعد، المتصاعد الذاتي والاجتماعي.

وبما أننا نتطلع إلى إحداث فرق في التعليم، فقد اعتمدنا أسلوب عمل يقوم على أن «نحكي عن تعليم نوعي، نبين كيف، نطالب بسياسات وقرارات توفر مناخاته وممكناته، ولكننا لم نكتف بذلك، بل انخرطنا مع المعلمين في إحداث هذا الفارق، عبر الممارسة، ومن خلالها، ومن خلال التأمل فيها، والعمل على تطويرها «وقد اعتمدنا في ذلك على «وعي المعلم بموقعه»، عبر سياقات حوارية أفضت إلى تحولات في «نظرة للمهنة والدور»، من خلال إعادة وضع المهنة كعمل في سياق بناء الذات الشخصية، والدور الاجتماعي النشط.

ثمة قصة تحكي عن حجارين يعملان في دق الحجر بجوار بعضهما، سئلا: ماذا تفعلان؟ فأجاب الأول: أدق الحجر، وأجاب الآخر: أبني

وفي هذه الرؤيا وضمناها "تولد" هذا الملف كتجربة تنتج رؤيتها وتعبيراتها، حيث كل تجربة عميقة هي تجربة تعيد إنتاج الرؤيا التي تنتجها بشكل يجعلها فعلا منتجا وخطابا دالا. وهذا التصور هو نتاج لتنامي تجربة العمل مع المعلمين والتفكير فيها، ما أنتج تعبيرات مختلفة منها: برادغيم جديد، علوم وثقافة علمية، اجتماعية العلوم ومجتمع المعرفة، تعليم وثقافة علمية ضمن "الشرط الإنساني للمعرفة والشرط الاجتماعي للتعليم والتربية"، وهذا ما يعطي للملف هويته الخاصة؛ سواء عبر المواد المترجمة، أم المواد المعرفية ذات الطابع الفكري، أم الأبحاث ذات الطبيعة التطبيقية، فكلها تنطلق من توجهات ترى أن "نتائج العلوم هي نتاج تفاعل معارف الناس اللحظية مع موضوعات عالمهم ضمن منجزات عصرهم"، وبالتالي فهذه النتائج دائمة التغيير ما دامت الصيرورة صفة ملازمة لظواهر العالم ومعارف البشر ومنجزات المعالجة، وإن ترجمة ذلك في الإطار التربوي تعني بناء التعليم على "جدلية مضامين العلوم ومناهجها في البحث والكتابة والتخييل"، فالحقيقة نسبية، وتعتمد على السياق والثقافة، وكما يرى "باسكال" "فتقضى الحقيقة العميقة ليس الخطأ، بل حقيقة مضادة"، وبالتالي فتعليم المعرفة بوصفها "حقائق" معزولة عن سياقات إنتاجها ومناهج تفكيرها، هو تعليم ينطلق من المنجز ويقاربه كمطلق، ويغفل "الحي"؛ أي سيرورة البحث وحيوية المنهج، وضرورات اللحظة والسياق، وتداخلات الثقافة والاقتصاد والسياسة، ويتجاهل "الدور الذاتي للعلماء والباحثين"، الشيء الذي "يلغي المضمون الحوارية للتعليم والتعلم من خلال إغفال الجانب الذاتي والجانب النسبي في العلوم".<sup>1</sup>

إذا كان لا تعليم ولا تعلم إلا ضمن سياق هو إنساني من حيث تفاعله الأصلي، وهو كذلك في شكل تنظيميه، فالتعليم هو «فعل إنساني الطابع»، وهو من صنع الإنسان من حيث تشكله، وما دام التعليم صنعة إنسانية والتعلم جزءا منها، فإن ذلك يتطلب وضع التربية ومضامينها المعرفية ضمن الشرط الإنساني؛ «فمهمة المعرفة موضوعة الإنسان في العالم لا فصله عنه» كما يؤكد موران. ومن هذا التصور، فإن «دور التعليم» في المجتمع وفي الحياة وفي الأفراد؛ سواء أكانوا معلمين أم متعلمين، يتحدد بشكل النظره له وشكل المنظور الذي يقوده، ولهذا فإننا نحاول في ملفنا هذا - كما في ملفنا السابقة - إعادة موضوعة

ويعيد النظر في دوره من خلال فتح الدور على أجندة جديدة وتخييلات اجتماعية تنويرية وإبداعية تفتح الحوار الاجتماعي على أقصى إمكاناته، على أسئلة الحرية والتحرر، على طموحات التنوير والتعدد الثقافي، وعلى أسئلة المعرفة وسياساتها لإعادة موضعيتها كدعامة للكفاح لا أداة للسيطرة. وهذا هو المعلم الذي يعلم أحرفاً وأرقاماً وكلمات ومهارات وطرائق وتوجهات ومشاعر، لأنه يضعها ضمن سياق فاعل وورشة اشتغال يشغل فيها الطلاب عقولهم وأجسادهم، ويختبرون معارف، ويضعونها في مواضع الاستخدام، ويدركون موضوعات تعلمهم، ويكونون مسؤولين عنه. إن هذا التعليم هو انخراط حقيقي في البناء الاجتماعي للمجتمع، وفي المساهمة الكفاحية، ومشروع التحرر الوطني، عبر اقتراح متخييلات جديدة في التعليم والحياة والسياسية.

مسجداً. والفارق في الإجابة يعكس (الاختلاف في المنظور)، فكل منهما يهيكل دوره ويبراه بطريقة مختلفة، فالأول لا يرى من عمله إلا لحظته، وانعزاله، وحرفيته، وحرفته، في حين الآخر يراه في سياق نموه وتشابكه حتى يصبح بناءً متكاملًا، وهذا ينطبق على التعليم وعلى منظور المعلم، فثمة معلم يرى نفسه «يدق حجراً» أو يعلم حروفاً أو أرقاماً... وآخر يرى نفسه يبني مجتمعاً.

ومن هذه الحكاية يمكننا القول أن ثمة نوعين من المعلمين، نوع يرهن دوره في حدود الوظيفة والروتين والأجندة السياسية للمؤسسة وللتوجهات الثقافية التقليدية ويرسخ مفاهيم الثبات والاتكال والعفوية في ذاته وعند طلابه، ونوع آخر يفتح المهنة على آفاق إنسانية واجتماعية

## الهامش

<sup>1</sup> للتعلم في هذه الموضوعات والمقولات، انظر في مواد الملف، مقالة كل من أشرف البطران، ونادر وهبة، ويوسف تيسس، ومشهور البطران وآخرين.



طفلة تعزف على آلة الكمان خلال حصة تدريبية في مدرسة غزة للموسيقى.